

# المصباح

١٣١٥

في يوم السبت ٢٣ صفر سنة ١٣١٧ الموافق ١١ يوليو (تموز) سنة ١٨٩٩

## ﴿ النهضة الاسلامية في مصر ﴾

قالوا ان للامم ثلاثة ادوار - نمو ووقوف وهبوط يتلوه الموت - ولكن كيف تتكون الامة فتتقلب في هذه الادوار ؟ كانت الامم تتكون بالمصيبة والحرب وتحيا بقوة الساعد وكثرة عدد المساعد وأما في هذا العصر فقد ارتقى النوع الانساني عن ان تكون حياته بقواه الحيوانية وكثرته العددية وصارت حياته بالقوتين العلمية والادبية وما ينشأ عنهما من القوة الصناعية وفي اليابان والصين آية مبصرة للناظرين . وكيف نهض الامم الحاملة بالعلم وتحيا بدموتها بالآداب ؟ يسوق الله تعالى اليها أو ينشئ فيها أفراداً من أصحاب العقول الكبيرة والهيم العالية والفضائل السامية تكون لهم هذه المزايا بالفطرة فيدركون بها غلظ ضعف الامة وخمولها وأسباب صحتها ونباحتها ويجهدون في نشر هذا فيها بالتعليم الصحيح فمند ما تلقى هذه التعاليم في الامة تضطرب لها - وكيف لا يضطرب الساهي تفاجئه صيحة الحق - ثم تقع في حيرة لا تدري هل الصواب بقاؤها على ما كانت عليه وان أندرت بان فيه حينها وهلاكها أو الاخذ بما تدعى اليه وفيه مفارقة عادها ومألوفها . ثم يكون الناس أزواجاً

ثلاثة (١) مقاومون معاندون ينفرون عن الدعوة الى الاصلاح باسم الدين و (٢) مخضرمون بصيخون الى الدعوة فلا يعقلونها كما هي فيكون من أثرها فيهم نبت التعاليم المتينة حسنها وقبيحها والاكتفاء من التعاليم الجديدة بما لا يظهر أثره في الاصلاح فيكونون بما استهانوا به حتى من محاسن أسلافهم وبما عساه يوجد فيهم من المغامز الشخصية حجة للمعارضين المعاندين و (٣) عقلاء فضلاء يكتنون شؤون الامة ويقفون على عللها وأمراضها ولو في الجملة ومتى أخذوا بالعمل يزدادون بصيرة وعلماً ولكن اشعة أفكارهم لا تخترق حجب الاوهام الضاربة في أذهان بني وطنهم الا رويداً رويداً كما هي سنة الله في الانسان يمرج في سلاليم الترقى درجة درجة لانه يطفر طفورا

كأن مبدأ هذه النهضة في مصر رجل اعجمي الوطن علوي النسب وهبه الله من ذكاء العقل وذكاء الفطرة ما يندر مثله في الاجيال الكثرة والقرون الطويلة الا وهو الحكيم الاسلامي الشهير السيد جمال الدين الافغاني الحسيني نور الله مرقدته . تربي الرجل تربية دينية فقراً العلوم الاسلامية وسائرها ومقاصدها وبرع في الفنون العقلية كالحكمة القديمة والكلام والاصول ثم نظر في الفنون الرياضية والفلسفية على طريقة اوربا الحديثة وسلك طريق التصوف سلوكاً كاملاً واطاف الى علمه الواسع في التاريخ الاختبار بالسياحة وعني اشد العناية بدراسة احوال الاسلام وتعرف امراض المسلمين الاجتماعية التي ارجعهم من مقدمة الامم الى ماوراءها الخ ماهو معروف من سيرته وقد كان وقف نفسه على ثنبيه المسلمين من غفلتهم وارشادهم للقيام بواجب شؤونهم لكي تلحق الامة بالامم العزيرة ولكن الامة امست كالمرضى الاحقق ياأبي الدواء ويأفقه من

حيث أنه دواء وقد اعتادت منذ قرون على أن لا تقبل اصلاحا الا اذا كان صادرا من جانب القوة الحاكمة ولذلك لم يوجد مستبد ظالم من سلاطينها وامرائها حاول عملا مضرا وقاومته فيه بل تستبدل المساعدة له بالمماندة فاذا استفتى العلماء محرفون له الكلم فيفتونه واذا استرفد الوجهاء يبذلون له النفس والنفيس فيرفدونه ولاجل هذا لجأ السيد جمال الدين الى عالم السياسة وحاول ان يكون الاصلاح من جانب الملوك والامراء لتخضع له الاعناق ويسري سريان الرياح في جميع الآفاق . ولقد كان سلك في مصر طريقة الاصلاح المثلى وهي التربية والتعليم فانبري له علماء السوء الذين اظهر تقصيرهم في العلم وخطأهم في التعليم فوضعوا في طريقة الاشواك والعوائير وحاربوه بسلاح الدين الذي جعلوه آلة للدفاع وأجولة للاتفاح وذلك بان نشوا في روع الدهماء من الناس بأنه منحرف عن هديه وشارك بعض علماء السوء في مظاهرته بعض المخاصين انخداعا لهم وكان لهم في ذلك شبهات ثلاث (اولاها) انه كان يعرف الفلسفة ومتوغلا في العلوم العقلية وهذا النوع من السلاح هو الذي حاربوا به اساطين الامة من قبل وبهذه الشبهة كفروا الامام الغزالي واضربه واحرقوا كتابه احياء علوم الدين في الشرق والغرب ثم كتبوه بعد ذلك بماء الذهب وسموا صاحبه حجة الاسلام وكذلك يفعلون ( الثانية ) عدم التقيد بالمعادن التي القوها ولونوا الكثير منها بلون ديني رغصا في نثار الرامة من شعائر الدين وهو في الحقيقة مخالف لاصوله او فروعه (الثالثة) ان كثيرا من المترددين عليه والمتلقين عنه كانوا لا يباليون بأمر الدين وانما كان لهم هذا من فساد تربيتهم الاولى لامن الاجتماع به اذ لم يكن هو الذي رباهم وعلّمهم من النشأة الاولى والرجل كان يبذل الحكمة

أكل من يحضر مجلسه من بر وفاجر ولا يمنع منه مؤمن ولا كافر والناس  
معادن كل يؤخذ ما يلائم معدنه ويناسب مشربه والحكمة كالطر تلقى في  
ارض النفوس فتكيف كل نفس منها بحسب استعدادها كما يقتدي البطيخ  
والخنظل الداتين في ارض واحدة من ماء واحد ويكون ثمر احدهما حلوا  
المذاق والآخر مر ازعاق « تسقى بماء واحد وتفضل بعضها على بعض في  
الاكل ان في ذلك لايات لقوم يعقلون »

كان فريق ممن يحضر مجلسه يسيء الفهم ويسيء الاداء ومنهم الذين  
يلوون السننهم بالكتاب ويحرفون الكلم عن مواضعه ومنهم الذين يقولون  
كذباً ويختمون افكاً . وكل هذه الفرق كانت توجد في زمان الاصلاح النبوي  
وابان نزول الوحي وظهور الآيات البينات . فما بالك باتباع غير الانبياء  
ومتبوعوهم معها عظمت حكمتهم ضعفاء لانهم وان منحوا الحكمة لم يؤيدوا  
بالمصمة . اني مالقيت الرجل ولكنني استقرت انبائه وتبعت مواقع الاتقاد  
عليه حتي عرفت مشارها ووقفت على مهب اهوائها . علمت ان بعضها كان  
من سوء الفهم وبعضها من سوء قصد الناقلين المدّعين لاعتنة الله على الكاذبين . اذكر  
لسوء النهم مثالا واحداً - قال لي منتقد من اهل العلم اني حضرت مجلس  
السيد جمال الدين حتي نهانا عن الصلاة في يوم من الايام فانقطعت عنه  
فقلت له كيف كانت القصة وهل نهاكم عن الصلاة نهياً صريحاً بان قال لا حاجة  
الى الصلاة اولا تصلوا فقال لا وانما تكلم عن الصلاة كلاماً ابان فيه عن ان  
صلاتنا لا يعبا الله تعالى بها ولا يقبلها بان قال ما يخصه ان الاعمال الظاهرة  
في الصلاة كالركوع والسجود هي كأعضاء الجسم والانسان ليس انساناً  
بأعضاء جسمه وانما هو انسان بروحه ونفسه وروح الصلاة الشعور بعظمة

الله تعالى وكال سلطانه فيها وتدبر ما تبلى من القرآن والذكر المعبر عن ذلك بالخشوع . قال محدثي واذا كانت صلاتنا ليست على هذا الوجه الذي لا يرضى الله تعالى الا به فلا شك انه يعني بان الاولى تركها مع ان قصارى مقاله فقهاؤنا ان الخشوع مستحب او مسنون . قتلت له يا استاذان الذي قاله الرجل موافق للقرآن والاحاديث الصحيحة وقد فصل الكلام فيه علماء الآخرة الذين بينوا للناس ما يقربهم من الله وما يبعدهم عن رضوانه كالامام الغزالي في الاحياء اما الشرب لالبية والولول الجلية والتنارخانية ونحوها من كتب الفقهاء فانما وضعت لضبط الاعمال الظاهرة وهلا حملت قول السيد على طلب الخشوع الذي اناط الله تعالى به الفلاح في كتابه دون الحمل على ترك الصلاة بالمرّة فرجع الرجل الى قولي وكان منصفاً فلو انني اخذت منه القول الاول على غرّة واذعته كما هو دأب الذين يحبون ان تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لما تمديت في ذلك ما عليه الدهماء منا واتقد وقع لئلا مذة المرحوم السيد جمال الدين كثير من امثال هذا لاسيما في المسائل الفلسفية الغامضة ونسبتها للدين

أما سوء القصد وما يتبعه من الكذب والافتراء فلا تسئل عن حال اهله مع المصلحين لاسيما في مثل الدور الذي فيه أمتنا اليوم من الضعف والاضمحلال وفساد الاخلاق . وأعجب ما سمع فيه ان بعض علماء السوء والفتنة اشاع بين الناس في العام الماضي بان فلاناً من العلماء أنكر وحدانية الله وبعضهم قال انكرو وجوده انكاراً صريحاً على ملاء من العلماء والطلاب في الجامع الازهر ومع ان هذا غير معقول - وأين من يعقل - أن يصدر ممن له ادنى تمييز وان كان فاسد الاعتقاد فان كتاب ذلك العالم الذي كان يقرأه في التوحيد بين الايدي وفيه

عزى البراهين العقلية على وجود الله تعالى ووحدانيته وهو من تأليفه ولكن  
 ماذا نتولى فيمن سده نفسه واستخف عقول الناس ولم يراقب الله تعالى  
 فحمله اغواء شياطينه على ذلك البهتان العظيم فنزل به ثم بمسئله الجزاء  
 الايم . لقد جمع القلم في بيان ما يعرض للاصلاح من العلل فأرجع الى  
 ما كفايه

قلنا ان الحكمة كالمطر يأخذ كل احد منها ما يلائم تربته وقد كان عدد  
 الذين اتصلوا بالسيد جمال الدين من المشتغلين بالعلوم الدينية قليلا بسبب  
 تفسير الشيوخ عن حضور مجلسه لما علمت ولذلك ظهرت النهضة القلمية في  
 لابي الطرايش اكثر من لابي العمائم وكان عدد الذين يسعون في اصلاح  
 العلم والتعليم الديني قليلين . وكاننا في حاجة شديدة لرجال الاقلام الذين  
 يجيدون الكتابة في جميع المواضيع لاسيما في الفنون العصرية التي عاينها مدار  
 التقدم الدنيوي كذلك نحن في اشد الحاجة الى قوم يفهمون الدين على حقيقته التي  
 ساد وسعد بها سلفنا الصالح وشقي واستعبد بجهلها خلفنا الطالح الى قوم يفهمونه  
 ويحسنون تلقينه وتعليمه فيأخذون بما ينفي وهو اللباب الخالص ويلقون ما  
 ألحق به وتغلغل في كتبه مما ليس منه ولكنه صار حائلا دون فهمه وتعلمه .  
 ولقد كانت عناية السيد رحمه الله بهذا النوع من اصلاح العلم والتعليم اشد  
 من غيره ولكنه لم يجد من المستعدين له الا قليلا والكرام كما قالوا قليل

امثل من اتصل بالسيد من الذين تربوا في مهده الدين علما وعملا الملامة  
 المفضل الشيخ محمد عبيد مفتي الديار المصرية لهذا السيد وهو الرجل المفرد  
 الذي تشبه فطرته الزكية فطرة السيد جمال الدين ومماثل تربته تربته حتى في  
 سلوك طريقة التصوف سلوكا كاملا . ولقد كان قبل معرفة السيد زيته صافيا

يكان بضياء ولو لم تمسه نار فمسته بالاتصال به نار غيرته وحكمته فاشتعل نوراً على نور . وقف على نتيجة أبحاثه واختباره الطويل في الإصلاح الإسلامي بل والشرقي أيضاً وعمول من الشيوخ الذين يخافون ان يظهر الإصلاح العلمي تقصيرهم في العلم والتعليم بمثل ما عمول به سابقه حتى لم يكن بينه وبين معهد التعليم الإسلامي في مصر (الازهر) اتصال قبل هذه السنين الأخيرة وسبب ذلك وشايات الشيوخ به للخديو السابق وتقصيرهم طلاب العلم عنه بانه فيلسوف يخشى من فلسفته على دينهم وكان هؤلاء لا ثقة لهم بدينهم لانهم ليسوا على بينة منه فيخافون من كل شبهة ان تأتي على زواله والموثق بالشياء لا يتوقع ولا يتصور زواله ومن لا يكون موقناً لا يكون مؤمناً . ولقد بقي لهذا الوهم بقية في نفوس بعض طلاب العلم في الازهر الى السنة الماضية فكانوا عند ما قرأ الاستاذ رسالته في التوحيد يتوقعون ان يأتي بمسائل الخلاف بين الفلاسفة والمسلمين ويرجع ادلة الاولين فلما رأوه قد سلك في العقيدة مسلك السلف اطمأنت قلوبهم وزالبتهم اوهامهم

تلك الدسائس والوساوس هي التي حرمت الترقى على الازهر في السنين الحالية وانحصر سعي الاستاذ في الطباعة زمناً . قبل الفتنة العرابية ، فكان له اثر عظيم في النهضة القلمية وتبي القضاء زمناً آخر والعهد به قريب وقد كان للمتصلين به في كل طور من الاطوار وكل زمن من الازمان اثر ظاهر في النهضة الحاضرة بحسب معارفهم وبيئتهم (حالمهم ومحلمهم) انظر تر القضاء الثلاثة - سعد بك زغلول واخوه يحيى بك وقاسم بك امين - وهم الذين يفتخر بهم القطر المصري ويمثلهم يصح له الاحتجاج بأن المصريين اعمل لان يحكموا انفسهم بانفسهم هم من اخصاء الاسناد والمثقفين عنه . تعلم كثير من

المصريين في مدارس اوربا كما تعلم قاسم بك وفتحى بك ولكن لم تر واحداً منهم يشغل اوقات فراغه بالتأليف والترجمة للكتب النفيسة التي يحتاج اليها الوطن في رقيته كما هو شأن هذين الفاضلين . هل يوجد بين ايدينا من الكتب النافعة لنا في نهضتنا الدينية والدنيوية كرسالة التوحيد للاستاذ وكتاب تحرير المرأة لقاسم بك وكتاب سر تقدم الانكليز السكسونيين الذي ترجمه حديثاً فتحى بك وهو افيد كتاب الف في اوربا في التربية والتعليم ؟ كلا . انه يوجد كثير من المصريين لا يعرفون قيمة هذه الكتب وآخرون لا يرفعونها الى مكانتها من الاعتبار التي تستحقه لاغراض معلومة وامراض غير مجهولة ولكن سيأتي على مصر زمان تجعل فيها دراسة هذه الكتب ضربة لازب ويجزم كل من يكتب في تاريخ مصر بان هذه الكتب كانت من انفذ عوامل النهضة الاخيرة واقوى اركانها ( كما اعترف الذين كتبوا في ذلك كيجرجي افندي زيدان بان السيد كان مبداء هذه النهضة ) وكما يجزمون بهذا يجزمون بان هذه الكتب الكثيرة التي وضعت للبحث في النواظير والاساليب كانت عشرات في طريق العلم بل وفي فهم تلك الكتب نفسها وسدود الامم الترقى وان كانت القاب مؤثمة ضخمة ونعوتهم كبيرة . ان جهل الامة هو الذي شبه عليها النافع بالضار وقد طفقت تنتبه الى مصالحها وتخرج من مضيق الضرور والانخداع باللبوس والنعوت والالقاب وهذه حركة طبيعية اقتضتها سنة الله في رقي الامم فمقاومتها جهل وغرور لذلك ترجو من علماءنا العقلاء ان يسايروها ويساعدوها الا ان يقاوموها ويمادوها وان يجعلوا الحق ميزان الاعمال اذ الرجال تعرف بالحق لا الحق يعرف بالرجال